الحرف في منطقة الريف ودورها في تنشيط التجارة خلال ق 19م وبداية ق 20م

د. محمد أحميان*

الملخص:

انتعشت مجموعة من الحرف في منطقة الريف، مرتكزة على المواد الأولية المحلية، وتجربة الإنسان الريفي التي راكمها على مر التاريخ. مما أسهم في إنتاج تشكيلة غنية من المنتوجات الحرفية، متفردة بخصائص ميزتها عن باقي مناطق المغرب. وتخصصت في إنتاجها مجموعة من القبائل، مستعملة في ذلك أساليب بدائية، رغم المحاولات المحتشمة التي قام بها الأهالي لتطوير القطاع، من خلال نقل بعض الأساليب التقنية من الغرب الجزائري، نتيجة إحتكاكه بهذا القسم من القطر الجزائري، من خلال الهجرة الريفية الموسمية إليه.

وقد أسهم النشاط الحرفي المتنوع في الريف، في تنشيط التجارة بين القبائل فيما بينها من جهة، وكذا مع الخارج من جهة ثانية، خاصة مع بداية تعامل الريف مع الثغور المحتلة، خلال القرن التاسع عشر. غير أن انفتاح الريف على الخارج، أدى إلى تسرب المنتوجات الأوربية، التي نافست بقوة المنتوج الحرفي المحلي، مما أشر على بداية إنتكاسه.

* - أستاذ باحث في التاريخ المعاصر، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين –وجدة، المغرب.

Abstract:

A range of crafts flourished in the rural area, based on local raw materials, and the experience of rural human accumulated through on history, which contributed to the production of a rich range of products crafts, unique characteristics which distinguished it from the rest of Maghreb , specializing in the production of a group of tribes, using a primitive methods, despite the modest attempts by indigenous to develop the techniques of the west of Algeria, as a result of inadvertent contact with this section of the Algerian country, through rural migration to it.

The varied craft activity in the rural areas has contributed to the revitalization of trade between tribes on the one hand as well as with the outside world on the other hand especially with the onset of the rural deal with the occupied territories, during the 19c', but the openness of the countryside on the outside, lead to leakage of European products, which competed strongly the local craft products, the latters triggered the beginning of the setback.

مقدمة:

يتطلب الإلمام بالنشاط الاقتصادي لمجتمع ما الإحاطة ببيئته الطبيعية، وعنصره البشري. لكون العملية الإقتصادية، هي نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته، ودرجة سيطرته على الطبيعة بالزراعة أو الصناعة، ونوعية العناصر البشرية المكونة للمجتمع[1]. إن جغرافية منطقة الريف[2]، التي تمتاز بكثرة أوديتها ومرتفعاتها ووعورة مسالكها، فرضت على المنطقة، إنعزالا عن محيطها، ومن أجل تحقيق توازنها الإقتصادي، انتعشت بها مجموعة من الحرف، المرتكزة على المواد الأولية المحلية، وتجربة الإنسان الريفي التي راكمها على مر التاريخ.

مما أسهم في إنتاج تشكيلة غنية من المنتوجات الحرفية، متفردةبخصائص ميزتها عن باقي مناطق البلاد.

وقد أسهم النشاط الحرفي المتنوع في الريف، في تنشيط التجارة بين القبائل فيما بينها من جهة، وكذا مع الخارج من جهة ثانية،خاصة مع بداية تعامل الريف مع الثغور المحتلة. وشكلت الأسواق الأسبوعية، مركزا لعرض مختلف المنتوجات الحرفية. غير أن إنفتاح الريف على الخارج، أدى إلى تسرب المنتوجات الأوربية، التي نافست بقوة المنتوج الحرفي المحلي، مما أشر على بداية انتكاسه. ولمعالجة الإشكالية التي يطرحها الموضوع، سنتطرق إلى المحاور التالية:

أولا: الإنتاج الحرفي وخصائصه في منطقة جبال الريف

تم إنتاج تشكيلة غنية من المنتوجات الحرفية في الريف، وتخصصت في إنتاجها مجموعة من القبائل، مستعملة في ذلك أساليب بدائية، كما تفاوتت خصائصها من منطقة إلى أخرى. وبإلقاء نظرة خاطفة على أهم المنتوجات الحرفية، نجد:

1- صناعة الأنسجة الصوفية:

اهتم أهالي الريف بإنتاج الأقمشة الصوفية الخشنة، التي تستخدم لصنع الجلاليب والحايك، وأنواع أخرى من الملابس[3]،وكانت تنسج بوسائل بدائية[4]؛ لذا كانت أقمشتهاخشنة[5]. وقام تبعض الأسر التي توفرت على أدوات النسج، بصنع قطع الأغطية والمناديلوخرقا صوفية تخاط منها الجلاليب، بالإضافة إلى "الحايك"، وهو عبارة عن قطعة كبيرة من الصوف الأبيض[6]. وقد تميزت قبيلة بني بوغافر بين قبائل قلعية بسمعة جيدة، فيما يخص حياكة أنسجة الجلاليب والحايك.[7] وتختلف خصائص هذه المنتوجات، حسب

الجهات والقبائل، وتبعا لذلك اختلف مثلا الجلباب من حيث الطول واللون والرسوم وفتحة الأمام وإنغلاقها،بين أقسام الريف[8]. وكما تجدر الإشارة إلى أن النساء كن يقمن بإنتاج كل أنواعالأنسجة[9]، حيث شاركن بفعالية كبيرة في الإنتاج الحرفي[10].

وقد أسهمت هجرة الريفيين إلى الغرب الجزائري خلال منتصف ق19م، في إطار الهجرة الموسمية، في جعل الأهالي يحتكون بالإنتاج الحرفي الجزائري، فعملوا على تطوير إمكانياتهم، خاصة فيما يتصل بحياكة أنسجة الجلاليب والحايك، حيث تعلم قسم كبير من الأهالي نسج الصوف وإنتاج الأقمشة في الغرب الجزائري نواحي وهران حيث توجد مناسج أكثر حداثة[11].

2- **الفخار**:

تمثلت المنتوجات الفخارية فيتصنيع الأطباق والأباريق[12]، و"القدور والجرات والبراريد والمجامير والقصاع والطواجين وغيرها من الأواني المنزلية"[13]. وهذه الأدوات كانت تشبه إلى حد كبير في أشكالها، والرسومات التي تحملها، تلك التي تزين الفخار القبرصي والفخار الإيبيري القديم، الأمر الذي يؤكد من جهة، قدم هذه الحرفة، ومن جهة ثانية وجود علاقة تجارية بين المنطقة الشرقية لحوض المتوسط ومثيلتها الغربية، قبل العهد الفنيقي[14].

وعموما، شكل الخط المستقيم ومشتقاته الهندسية من مستطيلات ومثلثات، ومعينات، ومربعات، أساس التفاصيل الزخرفية عند الأهالي. والتي تتمثل في تزيين الفخار والأواني الخزفية، التي تشبه إلى حد كبير نظيرتها في ندرومة (الحدود المغربية الجزائرية)[15].

وإمتازت صناعة الفخار بالبساطة، وإختصت بها النساء[16]، ويتم إنتاج الأدوات الفخارية في الأفران التقليدية المستعملة لحرق الطين، مما يجعل العديد من هذه المنتوجات تضيع بعد تشكيلها، عقب وضعها في الأفران وكانت

الاخيرة عبارة عن حفر تغطى بالأغصان والتراب[17]. وإختلفت المنتوجات الفخارية من حيث جودتها وشكلها، حسب نوع التربة المستعملة في كل قبيلة. فكان فخار قبيلة بني بوفراح ذالون أحمر، وغليظ الشكل، بينما كان نظيره في قبيلة بني ورياغ لأكثر رقة وجمالا[17].

3- **الدوم والحلفاء:**

نظرا لوفرة نبات الدوم والحلفاء في الريف، إنتشرت الحرف المرتبطة بصناعتها، وكان السكان يمارسونها بشكل كثيف قصد تسويقها، وتخصصت النساء فقط في هذا النوع من الصناعة في بعض القبائل. بينما في قبائل أخرى، يشتغل جل أفرادها في هذه الحرفة، بسبب كثرة الدوم فيها، كقبيلة بقوية مثلا في الريف الأوسط[18]. كما استخدمت الحلفاء كذلك، في صناعة الإخراج، التي توضع على ظهور الحمير والبغال، بالإضافة إلى السلال المختلفة، وكمامات البغال وأطواقها[19].

وقد أنتج بشكل واسع الحرف المرتبطة بالدوم والحلفاء، في قبائل الرحل، كمطالسة، وأولاد ستوت، وبني بوياحي، حيث وظفت هذه المواد في إنتاج الخيام[20]، حيث كانتمساكنهم"عبارة عن خيمة، تتكون من قطع الشرائط المسماة "فليا" (مفرد فيلي) تتم خياطتها بصوف الأغنام وشعر الماعز وخيوط الحلفاء أو الدوم"[22]. و"الفلي" هي قطعة من النسيج، من20إلى40ذراعا من الطول، ونصف متر من العرض، وتجمع هذه ال"فيلة"وتتم خياطتها، واحدة غامقة مع أخرى فاتحة. ولصنع خيمة واحدة، يحتاج إلى مابين أربعة عشر وستة عشرة فلية. أما خيام الوجهاء، فتتألف من أربعين فلية مجتمعة[23].

كما إستخدم الحلفاء، لصنع الكثير من الأثاث المنزلية، ومنها: صَوانٍ مزركشة بألوان مختلفة على شكل صحن يسمى"أتْبَگ"[24]، وصواني طهي الكسكس (له شكل مخروطي يستخدم في طهي الكسكس على بخار الماء)،

والنعال[25]، والسجاد، والبطانيات الخشنة[26]، وكذا الحصير الذييحل في المنازل الأكثر فقرا، محل البطانيات العادية والسجاد[27].

4- إنتاج الزرابي:

تنتشر في منطقة الريف، صناعة الزرابي بشكل واسع، وكثيرة هي القبائل خاصة في منطقة الكرت، التي تعاطَت لهذه الحرفة. وإن كانت معروفة قليلا في الأسواق الأوربية[28]، إلا أنها امتازت بقيمة فنية كبيرة؛ حيث عملت القبائل على إنتاج السجاد بسمات خاصة[29]، وأشهرها زرابي بني بويحي، ومطالسة، وقلعية، وإحتفظت رسومها بالخصائص الأمازيغية ذات الأشكال الهندسية المستقيمة[30].

وكان لنسيج السجادصدى كبير خارج حدود المغرب، وكان يُصنع في بعض القرى؛ مثل النسيج المعروف ب"العقدة"، ويمتاز بإستخدام رسومات مختلفة، وبتوظيف ألوان رائعة، وكان الريف ينتج حوالي 8.000 متر مربع سنويا[31].

5- صناعة الأسلحة:

إن موقع الريف على ساحل المتوسط، جعله محط دسائس القوى الإمبريالية وأطماعها، الأمر الذي قاد أهالي الريف إلى مقاومة أي تدخل أجنبي في مجاله، منذ الإستحواذ الإيبيري على الثغور المتوسطية خلال القرن15م، وستتزايد شدة المقاومة مع نهاية القرن 19م، وبداية الربع الأول من القرن 20م، فأولت القبائل الريفية إهتماما بالغا للأسلحة. وفي هذا الصدد، اشتهرت عدة قبائل في المنطقة -خاصة في جبالة-بصناعة الأسلحة، كتاغزوت وبني مزكلدي[32]، التي برعت في تصنيع البنادق كالسباعية والسداسية.... وغيرها، وكانت هذه الصناعة حرفية بحتة، مثل باقي مناطق المغرب. وبنفس الطريقة كان يتم تصنيع المسدسات، وأيضا أنواععدة من الأسلحة البيضاء[33].

ولقد سطع نجم قبائل جبالة في كل مناطق البلاد، فيما يتعلق بصناعة البنادق، وإستطاعت المكحلة (البندقية) "التاغزوتية"أن تحظى بتقدير قبائل الداخل[34]. فقد أثار انتباه النائب القنصلي الإنجليزي"گرين" (Gareen)، مدى الإتقان الذي كانت تصنع به الأسلحة النارية، التي جعلها في المرتبة الأولى ضمن المنتجات الحرفية لمنطقة جبالة[35]، وكان الأهالي يصنعون"مكاحل مزخرفة بالذهب والفضة يقدمونها هدايا للسلطان في الأعياد"[36].

6- <u>المنتوجات الخشبية والحديدية:</u>

إستغلت الأنشطة الحرفية، وفرة الغابة في جبال الريف، فقام"بعض الحرفيين المتخصصين، بصنع آلات المحاريث التي يحتاجها الفلاحون، وبعض الأدوات التي تدخل في البناء كالأبواب والنوافذ"[37]. ولقد"تخصص الرجال من مدشر"مقصورات في ثمازكا" (من قبيلة آيتورياغل) في صنع الأدوات الخشبية كالعكاكيز ومقابض المحارث والأوعية الخشبية المستعملة لحفظ التين المجفف"[38]. إضافة إلى صنع الأثاث المنزلي، فقد كان النقش على الخشب، نشاط معروف في بعض أقسام الريف، كما في صنهاجة، حيث يتمتع النجارون بسمعة كبيرة[39]. كما انتشر أيضا إعداد الفحم، وكانت له أهمية بالغة عند بعض القبائل كبني بويحي، وتزداد أهميته خلال سنوات الجفاف[40].

كما كانت حرفة الحدادة منتشرة في مجمل القبائل، وأنتجت مختلف الأدوات الفلاحية كصفائح الحمير والبغال والمناجل والفؤوس وسكك الحرث[41]. وإختصت بعض القبائل في هذه الحرفة، وأطلق على ممتهنيها ب"إمزيرن" أي الحدادون، وقد إحتلت هذه الفئة الإجتماعية مكانة دونية في الهرم الإجتماعي للريف.

7- المنتوجات الجلدية والحلي:

كان يصنع الحلي"من الذهب، أوالفضة، أو النحاس، وهي ذات رسوم تقليدية، وتأخذ أشكالاً هندسية مستقيمة والشائع منها الأقراط المستطيلة المزينة بزخارف مفرغة من المرجان والطلاء، تعلقها النساء. كما تنتشر المشابك الفضية أو النحاسية وتسمى"ثيسغناس" وتثبت بها النساء إزرها. ولتلك المشابك عامة، رأس من قطعة مثلثة"[42]. وقد إختصت في هذه الحرف، أساسا العائلات اليهودية المنتشرة في قبائل الريف.

أما الإنتاج الحرفي الآخر، الذي شهد إنتشارا واسعا في المنطقة، فيتعلق الأمر بالمنتوجات الجلدية، والتي احتلت أهمية كبيرة؛ نظرا لروعتها وتنوعها، مستفيدة من خبرة الصانع المحلي، ووفرة المادة الأولية التي تم توظيفها في صناعة منتوجات مختلفة، على رأسها النعال، والأحزمة، والوسائد، والأسوار، والحقائب، والمحافظ، وغيرها من المنتوجات التي تحاكي بشكل مثير للإعجاب، السلع الأوربية التي دخلت إلى المنطقة بفضل التجارة الأوربية[43].

وعموما، كانت الصناعة الحرفية الريفية محدودة وبدائية جدا، كما عكست خصوصية المجال الريفي. كما تميز النشاط الحرفي بكونه ذو طابع حرفي وأسري، اقتصر على تحويل المواد الخام، إلى بعض المنتوجات اللازمة لتلبية إحتياجات الأهالي[44]، كما في كل المجتمعات الفلاحية. فالصناعة لا تتخذ أي مظهر مهم، وإقتصرت على الحرف اليدوية[45]. فكانت الغاية، الإستجابة للحاجيات المحلية وليس تحقيق تراكم رأسمالي.

وقد زاوجت القبائل بين الأنشطة الفلاحية والحرفية، لتحقيق التكامل الإقتصادي، وكانت المداشر التي تقل فيها الموارد المائية والأراضي الزراعية، لاتسمح للأهالي بالتفرغ للزراعة، فتدفع بهم لإمتهان مهن أخرى، كمدشر إعكين المتواجد داخل منطقة آيث بوعياش، فهم وحدهم في كل منطقة

آيتورياغل، الذين يمكن إعتبارهم مهنيون، ويخصصون كل وقتهم لحرفة واحدة. وهذا يعود، لكونهم يعيشون في ظروف بيئية فقيرة، لاتسمح لهم بأن يصبحوا فلاحين[46].

ومن جهة أخرى، لابد من الإشارة إلى إفتقاد الأنشطة الحرفية في الريف إلى التنظيم[47]، ولم يكن لها مكان قار تمارس فيها، لذلك وجدت مجموعة من الحرف البسيطة، عبارة عن ورشات عائلية[48]، تهتم أساسا بالنسيج والحياكة، وفن الحفر والنقش...الخ.

ثانيا: دور الحرف الريفية في تنشيط التجارة المحلية والخارجية

عرفت الأنشطة الحرفية إنتعاشا مهما خلال ق19م، مما أثر بشكل إيجابي، سواء على مستوى الدخل أو عدد المشغلين[49]. وإستطاع هذا الإنتاج الحرفي المتنوع، تنشيط المبادلات الداخلية كما الخارجية.

1- تنشيط التجارة الداخلية:

إعتمد المجتمع الريفي التقليدي، غداة إغلاق منافذه البحرية، بعد التكالب الإيبيري عليه، خلال القرن15م، على تحقيق الإكتفاء الذاتي. فقساوة الظروف الطبيعية، وضعف وسائل الإنتاج، في ظل ضغط ديمغرافي كبير، معطيات لم تسمح بإنتاج تسويقي متطور؛ فدخلت المنطقة في إقتصاد الكفاف، وفي أحسن الأحوال إعتمدت على عمليات تبادلية قائمة على المقايضة. وكانت الأسواق مركزا للأنشطة التجارية، لذا غالبا ماتوسطت مجالا جغرافيا متفاوت الإمكانيات الطبيعية والإقتصادية؛ كموضع إلتقاء الجبل والسهل، مما يتيح إمكانية تحقيق التكامل الإقتصادي بين القبائل. ويمكن أن نميز في الأسواق الريفية بين:

- الأسواق القروية الأسبوعية، التي تعقد في أيام معلومة من الأسبوع.

- الأسواق الموسمية (خاصة تلك التي كانت مرتبطة بمواسم الأولياء).

وقد توزعت شبكة الأسواق القروية والمواسم جغرافيا في كل أرجاء الريف، وتوسطت قبائل عدة من أجل تسهيل الإتصال والتكامل بين المجموعات البشرية المختلفة، بعيدا عن مجال إستقرار السكان، في موضع ملائم لنشاطها: مجال منبسط، وملتقى مسالك، وعلى مقْرُبة من عيون المياه لضمان التزود بالماء[50].

وكانت تعقد الأسواق دوريا، في أيام وأماكن معلومة لدى القبائل، ويَفِد إليها الأهالي من مختلف القبائل والأعراق، وخاصة إذا كان السوق مهما[51]، وتعقد في الهواء الطلق، ويبدأ نشاطها في الصباح لينتهي عند غروب الشمس[52]، ويقصدها الأهالي لعرض منتوجاتهم الحرفية[53].



صورة رقم 1: منظر للمعاملات التجارية في أسواق الريف

★L. ALONSO، "El zoco de Tétuàn", **La Esfera**, nº 313, Año VII, 3 de Enero de 1920, (sin página).

لقد شكلت الأسواق مؤسسة قائمة بذاتها، ويعتبر الشق الإقتصادي فيها دعامة أساسية للوظائف الأخرى؛ حيث كان"يؤدي السوق-حسب"مايكسيل"- أربع وظائف إقتصادية رئيسية، وهي:

أولا: بيع وتسويق المنتوجات المحلية.

ثانيا: مبادلة الفائض والمنتوجات القروية الخاصة بالسلع الحضرية.

ثالثا: ترويج الأدوات التي تتخصص مختلف المداشر والقرى في صناعتها.

رابعا: نشر وترويج السلع الأجنبية المستوردة"[54].

وكانت الوظيفة الاقتصادية للسوق تتصل أولا بالمزارعين، الذين يزودونه بالإنتاج، مُبادِلين إيّاه بغيره من المنتوجات؛ لتلبية إحتياجاتهم، أو للحصول على المال[55]. ويعتبر دور السوق أساسيا لتحقيق التوازن؛ فالمنتج يتطلع لبيع فائضه، والحصول على حاجياته الأخرى شراء أو تبادلا، وتساهم هذه العمليات في تحقيق التوازن الإقتصادي داخل وحدة الإنتاج[56]. وعموما، يتشكل السوق من مجموعة من العارضين والطالبين، ويعتبر مبدأ العرض والطلب أساس فعاليته.

ولم ينحصر تبادل هذه السلع بين أهالي الفخذة أو الفخذات المجاورة فقط، بل تجاوزه إلى باقي القبائل، التي لم تكن تتردد في القيام برحلات طويلة[57]. وكانت تصل أسواق الريف سلع أخرى إنطلاقا من الحواضر المغربية، وخاصة من فاس التي تبضعت منها قبائل القسم الجنوبي للريف[58]. وتنوعت المنتوجات الحرفيةالمعروضة في السوق، كالمنسوجات(الحايك، الجلاليب..)[59]، والأواني الخزفية[60]،"والخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود، والزرابي"[61]، وأحجار الرحى[62]."بالإضافة إلى مختلف الأدوات والأواني التقليدية، كالأوعية المستعملة لحفظ السوائل، والقلال أو الأباريق، والصحون، والجرار، والشماعد والقصعات أو الصواني. وبفضل تطور حرفة صناعة الفخار، تم

إنتاج عدد كبير من الأشياء الصغيرة والبسيطة، التي تباع كنوع من التحف، منها المحابر والجرر الصغيرة والشماعد وأطقم الشاي والصواني والأكواب بمختلف الأحجام والأشكال والزخارف"[62]. وكانت أسعار المنتوجات المعروضة، تختلف من سوق إلى آخر[63]، ولعل قانون العرض والطلب، هو المتحكم بالأساس في هذا التفاوت.

ولم تقتصر العمليات التجارية على الرجال فقط، بل شاركتهم فيها أيضا النساء. "فالنساء القلعيات (مثلا)، كن يتجولن بحرية في الأسواق ويتاجرن ويشترين مايحتجن إليه، وهن يحتكرن بيع البيض والدجاج والطاسات المصنوعة من الطين (الزلايف)، وصحون الخزف المستوردة من إسبانيا، والقدور والمواقد الطينية المصنوعةبالقبيلة"[64]. ولكن تبقى أسواق النساء في الريف الأوسط، ظاهرة فريدة في التاريخ السوسيوإقتصادي للمنطقة[65].

2- **<u>الحرف وتنشيطها للتجارة الخارجية:</u>**

تميز النشاط الحرفي في الريف، بإنتاج تشكيلة غنية من المنتوجات الموجهة ليس فقط لتلبية الإحتياجات الداخلية المتعددة، وتحقيق الرفاهية لسكانها، بل لمواجهة الطلب الأجنبي المتزايد أيضا. حيث كان لنسيج السجاد صدى واسعًا خارج حدود المغرب[66]. وبذلك، فإن هيمنة المنتوجات الفلاحية على صادرات الريف نحو الخارج، لم يمنع من بروز أهمية المنتوجات الحرفية، التي أسهمت في إنتعاش صادرات الساحل الريفي مع نهاية ق19م.

كما وجدت المنتوجات الحرفية الريفية، طريقها عبر المسلك البري نحو الغرب الجزائري، فقد أورد سكرتير الغرفة التجارية في وهران Déchaud عرضا عن الوضعية التجارية لفرنسا في نهاية1865، يشير فيه إلى وصول بعض المنتوجات الحرفية الريفية إلى أسواق الغرب الجزائري[67]. حيث كان للهجرة الريفية الموسمية نحو الغرب الجزائري، دور بارز في تنشيط هذا التيار

التجاري، فقد سجل"لنيير" (Lennier) في إطار حديثه عن رحلات الريفيين، المتجهين كل سنة صوب وهران، أنهم كانوا يحملون معهم أدوات منحوتة من خشب الزيتون كالمغارف والملاعق...الخ[68]. كما كانوا يحملون معهم أحجار الرحى، فقد كانيصل كل سنة إلى وهران مركبين من ساحل الريف، محملين بأحجار الرحى لطحن الحبوب. وقد أخذت التجارة في الرحى الحجرية، أهمية كبيرة، بعدما أصبحت تستخدم على نطاق واسع، في الغرب الجزائري[69].

كما وجدت زرابي الريف، طرقها إلى الأسواق الأوربية[70]. وبذلك فقد صدرت المنتوجات الحرفية للريف إلى الجزائر، وتونس، وإسبانيا، وفرنسا، والشرق...الخ[71].

ثالثا: تراجع أهمية الحرف نتيجة المنافسة الخارجية

بفضل الإنفتاح، الذي عرفه الريف مع القرن 19م، تم الحصول على مختلف السلع الأوربية، إما بشكل قانوني، أو عن طريق التهريب، الذي نشط في السواحل المتوسطية للمغرب. ولم يكن غزو المنتوجات الأوربية لأسواق الريف، مع أواخر ق19م، يعود بالأساس إلى ضعف الحرف المحلية، بقدر ما إرتبط بالإنفتاح الذي خلق احتياجات جديدة[72]. فموليراس تحدث عن أسواق مطالسة، ذاكرا أنها كانت مزودة بشتى أنواع البضائع الأوربية[73]. كما أشار Rafael Fernandez de Castroأنسوق أحد بني شيكر، القريب من مليلية، كان الأكثر ازدحاما في قلعية، لقربه ولسهولة التواصل مع مليلية، وكانت تعرض فيه العديد من السلع الأجنبية[74].

وعلاوة على ذلك، فإن العديد من الحرف الأكثر تقدما، بدأت تختفي سنوات قليلة من فرض الحماية، نتيجة لمنافسة المنتوجات الأجنبية، التي بدأ إستيرادها بكميات متزايدة، إضافة إلى إستفحال نشاط التهريب[75].وكان

لإكتساح"السلع الأجنبية للسوق المغربية، تأثيرواضح على الحرف المحلية، ذلك أن المنسوجات المحلية تعرضت لمنافسة الأقمشة المستوردة، فأصبحت حياكة الملابس المغربية، تعتمد بالأساس في صنعها على الأثواب المستوردة بأنواعها المتعددة (ملف، حياتي، نلاكة، توبيت...)، كما بدأت المنتوجات القطنية تحل شيئا فشيئا محل المنسوجات الصوفية"[76]. حيث"نافست المنسوجات الصوفية المحلية في حياكة الملابس المغربية، نوع من الثوب من أصل إيطالي إستعمل في حياكة القفطان النسوي، ويصح الشيء نفسه بالنسبة"لتوبيت"، وهو ثوب من أصل فرنسي وألماني كان يستعمل فيحياكة مجموعة من الملابس النسوية التي كانت تجد إقبالا بين الفئات الفقيرة نظرا لإنخفاض أثمانها"[77]. فأصبحت النساء مولعات بالأثواب القطنية، الإسبانية والإنجليزية، التي يصنعن منها أقمصة ذات أكمام قصيرة[78]. وكان"الرجال يرتدون سراويل قصيرة وواسعة مزمومة عند الركبتين، مصنوعة من ثوب قطني ذي اللون الأبيض أو الأزرق، وقد كانت تصنع من الصوف، قبل أن تظهر الثياب القطنية مع مجيء الإسبان"[79].

ونفس الأمر بالنسبة لصناعة الأسلحة، فلم تعد بنادق تاغزوت وبني مزكلدي تحقق طموحات الأهالي، فتهافتوا على الأسلحة الأوربية المهربة. ونظرا للأهمية التي أصبحت تكتسيها الأسلحة في المجتمع الريفي، كان الأهالي يلجؤون أحيانا إلى بيع جزء "من الأرض أو بقرة لايملك غيرها ليشتري بثمنها بندقية جديدة ممتازة النوع"[80]. فانتشرت الأسلحة الأوربيةكLes Remington (كلاطة Quelata) و Mauserالألمانية (الخماسية)[81]، وأصبح عدد الأهالي الذين لا يتوفرون على البنادق، ذات المصدر الأوروبي قليلا، خاصة في قبائل الريف الشرقي[82].

كما نافست أيضا صحون الخزف المستوردة من إسبانيا، والكؤوس الزجاجية، الخزف المحلي[83]. فضلا عن تعويض الحذاء الأوربي[84]، النعال التي كانت تصنع من الدوم من قبل أهالي الريف. وحلت المجوهرات والساعات الأوربية[85]، محل الحلي المحلي الذي تخصصت في إنتاجه العناصر اليهودية المنتشرة في قبائل الريف.

وبذلك بدأت الأدوات الأوربية الصنع تغزو بيوت مختلف الفئات، إذ كثيرا ما وجد الإسبان لدى الأهالي أثناء هجماتهم، أثاثا أوربيا وآلات خياطة وأدوات حلاقة وآلات تصوير[86]. وتحول أثاث بيوت الريفيين، بعدما كان الحصير والزرابي تشكل أساسها، وتكملها أواني الفخار المخصصة للإستعمالات العادية[87]. فبدأت تتسرب إلى بيوت القبائل ذات النشاط التجاري، أواني القش الأوربي[88]، حيث أصبحت تروج داخل الأسواق الأسبوعية، مختلف الأواني الأوربية.

وقد صُممت السلع الأجنبية التي كانت تروج في الريف وفقا لذوق الأهالي؛ متمكنة بذلك من غزو أسواق المنطقة، وكانت هذه السلع بصفة عامة من نوع رديء، رغم حسن المظهر. ومن بين هذه المنتوجات نجد الأواني الزجاجية، والمنسوجات القطنية[89]، بالإضافة إلى الحلي الرخيص؛ كالقلادات، وهي السلع التي تجد في الغالب إقبالا لدى الأهالي[90].

وأمام الإقبال الواسع الذي بدأت تجده المنتوجات الأوربية في الريف، إحتدمت المنافسة بين القوى الأوربية حول السيطرة التجارية عليه. وتشكل الأقمشة القطنية المادة الأكثر رواجا في الريف، وعلينا أن نميز بين نوعين منها: البيضاء والمصبوغة. وقد نافست المنسوجات الإسبانية نظيرتها الإنجليزية، التي كانت تهيمن على الأسواق العالمية، فبدأت الأقمشة الكطالونية وخاصة ذات الألوان الزاهية، تجد طريقها إلى الأهالي[91].

ففيما يخص الأقمشة القطنية الملونة، قد زار ممثل المصنع الكطلاني للأقمشة، مدينة مليلية، سنة 1906م، لدراسة الذوق المغربي[92]. فبدأت الأقمشة البيضاء الإسبانية والملونة، تحرز تقدما في أسواق الريف، نظرا لتمكن المصنعين من إرضاء ذوق الأهالي[93]. لذا تزايد الإقبال عليها من مختلف الشرائح، أمام إفلاس المنسوجات المحلية التي تعرضت لمنافسة الأقمشة المستوردة[94].

هذا ما أثر سلبا على الإنتاج الحرفي المحلي، الذيما فتئ أن تراجعت أهميته لشدة المنافسة الأجنبية، وأضحت معه بعض المنتوجات الحرفية مهددة بالإختفاء تماما؛ مثل: القطع المعدنية، والسجاد، والتطريز، والجلود، والخزف، رغم محاولة السلطات الإسبانية-بعد فرض الحماية-دعم الأنشطة الحرفية[95]. فإلى غاية العقد الأول من ق20م، كان النشاط الحرفي مزدهرًا نسبيا، غير أن المحاولات الفرنسية والألمانية لتقليد المنتوجات المغربية، قد اضرت به[96].

على الرغم من التأثير الواضح للمنتوجات المستوردة، على الحرف المحلية، فإنها وفرت سلعا في متناول فئات عريضة من المجتمع، هذا في الوقت الذي كان فيه إرتفاع أثمان المنسوجات الصوفية المحلية، يجعلها تقتصر بالضرورة على الميسورين[97]. فبذلك توسعت قاعدة إستهلاك المواد الأوربية، وأضحت السلع الأوربية من أثاث منزلية وأثواب مختلفة، تجد طريقها إلى بيوت الريف.

وكانت فئة الوسطاء سباقة إلى إستهلاك هذه المواد، التي أتاحت لها إمكانياتها الإقتصادية إقتناؤها، وغدا إستهلاكها أهم ما ميز هذه الفئات الغنية، التي أفرزها الإختلاط بالرأسمال الأجنبي، عن باقي الفئات العريضة من المجتمع الريفي خلال القرن التاسع عشر. فتهافت وجهاء القبائل على شراء

الأثاث الأوربي، فمثلا نجد ضمن زبائن التاجر عبد العزيز القباج الذي استقر في مليلية، بعض كبار رجال السلطة مثل الباشا عبد القادر الحاج الطيب الشكري، وأعوانه[98]. كما استغل مولاي عرفة وجوده جوار مليلية، عندما قاد محلة مخزنية إلى قبائل قلعية، فاشترى سريرا معدنيا من الثغر المحتل[99]. ونفس الأمر بالنسبة لأهالي الريف الأوسط، ممن تقاطر على ثغري بادسوالنكور، اللذان كانا يتوفران على بعض المحلات الزاخرة بالبضائع، حيث كان الأهالي يقتنون منها المنسوجات والأجهزة، أي كل ما يجعل الحياة أكثر يسرا ونعومة[100].

إن النخبة الجديدة التي أفرزها انفتاح الريف على الخارج، وبفضل ما راكمته من ثروات جراء أنشطتها البحرية المختلفة، بدأت تبحث عن التمايز الإجتماعي عن باقي الفئات المشكلة للمجتمع الريفي. وظهر هذا التمايز بشكل واضح في فضاء السكن،"والذي يتميز من داخله لا من خارجه"[101]. وقدم لنا المغامر والصحافي الإسباني"أركسإنريكس"، وصفا دقيقا من الداخل، لأحد منازل وجهاء قبيلة بقيوة، ويتعلق الأمر بالسيد"دادي بن مسعود"، الذي استقبله في منزله ورصد بعض مظاهر التحول. فيقول: "هذه الليلة سنتعشى في دار"سي دادي"وفيها سننام، قضينا النهار في منزل العربي حيث كنا محل كرمه. والآن نستريح في هدوء في هذا المنزل الذي تتوفر فيه كل وسائل الرفاهية الممكنة، (...)وفي البيت استبدل الحصير بالزرابي والستائر الحريرية، وفراش النوم المصنوع من القصب بالناموسية ذات التاج المذهب، والصينية النحاسية بالصينية الفضية"[102].

خاتـمة:

إجمالا، تمكن أهالي الريف من إنتاج منتوجات حرفية متنوعة، استجابة لحاجياتهم، ووظفوا الفائض منها في المبادلات التجارية، سواء داخليا

أو خارجيا. ورغم انفتاح الريف على الخارج مع القرن التاسع عشر، لم يصاحب ذلك أي تطور على المستوى التقني. لذا ظل الإنتاج بدائيا، غلبت عليه البساطة، رغم المحاولات المحتشمة التي قام بها الأهالي لتطوير القطاع، من خلال نقل بعض الأساليب من الغرب الجزائري، نتيجة إحتكاكه بهذا القسم من القطر الجزائري، من خلال الهجرة الريفية الموسمية إليه. كما أن تسرب المنتوجات الصناعية الأوربية لأسواق الريف، ومنافستها القوية للإنتاج الحرفي المحلي، قد أجهزت على كل المحاولات لتطوير وتحديث النشاط الحرفي في الريف.

الهوامش:

1- فاطمة بلهواري، التكامل الإقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط. منشورات الزمن، الرباط، 2010، ص. 10.

2- سنوظف في هذا العمل مصطلح الريف، بمعناه العام لنقصد به المنطقة الممتدة من نهر ملوية شرقا إلى طنجة غربا.

3- *Aniceto RAMOS CHARCO-VILLASEÑOR, EL RIF: Apuntes para su Estudio. Imp. Del Colegio de María Cristina, Toledo 1930, p.* 158.

4- *Tomas GARCÍA FIGUERAS, Juan L. Fernández Llebrez, La zona españoladelProtectorado de Marruecos. Publicación de Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, Madrid 1955, p. 32.*

5- *Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF, rédigésprobablement par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 8 , Kabila de Beni buyahi,p. 2-3. (BibliothèqueNationale de Madrid)*

6- عبدالرحمانالطيبي،الريف قبل الحماية (قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912م). منشورات تيفراز، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2008م،ص. *166*.

7- Rafael FERNÁNDEZ DE CASTRO Y PEDRERA, El RIF: Los territorios de Gelaía y Quebdana. Imp. Zambrana Hermanos, Málaga 1911, p. 78.

8- أنجيلوغريلي، أسلمة وتعريب بربر شمال إفريقيا. ترجمة: عبد العزيز شهبر، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل،الرباط 2009، ص. 112.

9- Gabriel DELBREL, Geografía general del Rif (1909-1911).Eds. de la Consejería de Cultura, Melilla2009, p. 147.

10- Angelo GHIRELLI, El norte de Marruecos: Contribución al estudio de la zona de protectoradoespañol en Marruecos septentrional. Eds. Artes Graficas Postal Exprés, Melilla 1926, p. 51-52.

11- R. FERNÁNDEZ DE CASTRO Y PEDRERA,El RIF, op. cit., p. 78.

12- Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF, rédigésprobablement par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 6, Kabila de Quebdana,p. 7. (BibliothèqueNationale de Madrid)

13- الطيبي،الريف قبل الحماية، م. س،ص. 167-168.

14- أنخيلوكيريلي، ابقوين : قبيلة من الريف المغربي. ترجمة وتحقيق وتقديم، عبد المجيد العزوزي، مطبعة ابي رقراق، الرباط ، ط.1، 2013، ص. 70.

15- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 154

16- Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF, rédigésprobablement par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 8, Kabila de Beni buyahi,p. 2-3. (BibliothèqueNationale de Madrid)

17- غريلي، ابقوين، م. س،ص. 71.

18- الطيبي،الريف قبل الحماية، م. س،ص. 167-168.

19- نفسه، ص167.

20- دافيد مونتكمري هارت، آيثورياغل: قبيلة من الريف المغربي دراسة إثنوغرافية وتاريخية. ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا وآخرون، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، ط.1، مطبعة أقواس للنشر، هولندا 2007، ج. 1، ص. 83.

21- Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF, rédigésprobablement par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 8 , Kabila de Beni buyahi ,p. 2-3. (BibliothèqueNationale de Madrid)

22- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 106

23- نفسه، ص.107

24- G. DELBREL,Geografía general,op. cit., p. 247.

25- A. RAMOS CHARCO-VILLASEÑOR, EL RIF,op. cit., p. 158.

26- Ibid. p. 158.

27- Ibid. p. 158.

28- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 156

29- G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit., p. 32.

30- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 156

31- G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit., p. 32.

32- Fouad ZAÏM, Le Maroc et son espaceméditerranéen: Histoireéconomique et sociale.Impr. Al Maarif al Jadida, Rabat 1990, p. 216.

33- AhmedM'HADDARHA, La resistance de Djebala vis-a-vis de la colonisationespagnole. Thèse de Doctorat de 3eme cycle, Ecole des hautes études en sciences sociales, 1984, p. 49.

34- اوجست موليراس، المغرب المجهول: اكتشاف الريف. ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، مطبعة دار النجاح الجديدة، البيضاء، 2007م،ص. 57.

35- خالد بن الصغير،المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر(1856-1886). منشورات كلية الآداب بالرباط، ط. 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997، ص. 215.

36- مصطفى بوشعراء، الإستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894).المطبعة الملكية، الرباط 1404هـ/ 1984م، ج. 1، ص. 241.

37- الطيبي،الريف قبل الحماية، م. س،ص.166-167

38- دافيد هارت، آيثورياغل، م. س،ص. 83.

39- *NOGUÉ Joan y VILLANOVA VALERO José Luis, España en Marruecos (1912-1956). Editorial Milenio, Lleida 1999, p. 134.*

40- *Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF, rédigés probablemente par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 8, Kabila de Beni buyahi ,p. 2-3. (BibliothèqueNationale de Madrid)*

41- الطيبي، الريف قبل الحماية، م. س،ص.166-167

42- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 156

43- *G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit., p. 32.*

44- *J. NOGUÉ- J. LUIS VILLANOVA, España en Marruecos,op. cit., p. 134.*

45- *Ibid. p. 134.*

46- دافيد هارت، آيثورياغل، م. س،ص. 83.

47- *A. GHIRELLI, El norte de Marruecos,op. cit., p. 51.*

48- الطيبي، الريف قبل الحماية، م. س، ص. 167-168.

49- *Mimoun AZIZA, La Sociedadrifeñafrente al protectoradoespañol de Marruecos (1912-1956). Eds. Bellaterra, Barcelona 2003, p. 129.*

50- *J. NOGUÉ- J. LUIS VILLANOVA, España en Marruecos,op. cit., p. 137.*

51- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص 86.

52- *G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit., p. 32.*

53- *L. ALONSO, "El zoco de Tétuàn", La Esfera, nº 313, Año VII, 3 de Enero de 1920, (sin pagina).*

54- دافيد هارت، آيثورياغل، م. س،ص. 95.

55- *Allal SAKROUHI, La logique économique paysanne et la logique du capital : étude de la dynamique sociale dans une région «Périphérique» Cas du Rif de 1860 à 1980. Thèse de doctorat de 3ème cycle Univ. des sciences sociales de Toulouse I, Année universitaire 1981/1982, p. 92.*

56- Ibid. p. 92.

57- *A. RAMOS CHARCO-VILLASEÑOR, EL RIF, op. cit., p. 159- 160.*

58- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 121.

59- G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit.,pp. 44-45.

60- Cuestionario de las Kabilassont des fiches polycopiéesportant sur les tribus du RIF , rédigésprobablement par les Inerventores Militares dans les annéesvingt, N 6 , Kabila de Quebdana,p. 7. (BibliothèqueNationale de Madrid)

61- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 130.

62- دافيد هارت، آيثورياغل، م. س،ص. 95.

63- غريلي، ابقوين، م. س،ص. 71.

64- G. DELBREL,Geografía general,op. cit., p. 256.

65- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 155.

66- للمزيد حول الأسواق النسائية في الريف يُنْظر: عبد الحميد الرايس، "سوسيولوجيا الأسواق النسائية بالريف الأوسط". مجلة حوليات الريف، ع. 1، 1419هـ/198م، ص. 55-77.

67- G. FIGUERAS y F. LlEBREZ, La zona española,op. cit., p. 32.

68- Édouard DÉCHAUD, "L'Espagne au Maroc: Melilla et les présides" (2ème partie). Bulletin de la Société de géographie commercial de Paris, t. XXX, nº 1, Janvier 1908, p. 01.

69- G. LENNIER, "Voyage des marocains du Rif en Oranie", In Bulletin de géographie et descriptive. Paris 1893, p. 194.

70- Ibid. p. 194.

71- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 156

72- M. AZIZA, La Sociedad rifeña, op. cit., p. 129.

73- Raymond JAMOUS, Honneur et Baraka: Les structures sociales traditionnelles dans le Rif. Publications Cambridge UniversityPress and et Maison des Sciences de l'Homme, Paris 1981, p. 23.

74- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 130.

75- *R. FERNÁNDEZ DE CASTRO Y PEDRERA, El RIF, op. cit., pp.44-45.*

76- *J. NOGUÉ- J. LUIS VILLANOVA, Espana en Marruecos, op. cit., p. 134.*

77- بوشامة سعيد، عمرية المصطفى، غرابي الغزواني وآخرون، التجارة الفاسية: أسرة القباج بمليلية (1912-1939).أشرف عليه وأعده للنشر: خالد بن الصغير، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2004، ص. 118-119.

78- نفسه، ص. 119.

79- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 140.

80- دافيد هارت، آيثورياغل، م. س،ص. 58.

81- العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال.مطابع الشويخ، تطوان1402هـ/ 1982م،ص.79.

82- *F. ZAÏM, Le Maroc et son espace, op. Cit., p. 216.*

83- *A. GHIRELLI, El norte de Marruecos, op. cit., p. 58.*

84- موليراس، المغرب المجهول، م. س، ج. 1، ص. 155.

85- التجارة الفاسية، م. س، ص. 121.

86- *Pedro GUARRO Y GONZÁLEZ, " El Rif comercial". Revista de Geografía Comercial, nº 133-134, Año X, Septiembre-Octubre de 1894, Madrid, p. 114.*

87- أوردته: ماريا روزا دي مادارياغا، "الحزب الإشتراكي الإسباني والحزب الشيوعي الإسباني في مواجهة حرب الريف". مجلة أمل، ع. 12، 1997، ص. 144.

88- *Manuel Juan DIANA, Un prisionero en el Rif: Memorias del ayudante Alvarez. Segunda edición, Imp. Manuel Gali, Madrid 1859, p. 48-49.*

89- غريلي، أسلمة وتعريب، م. س، ص. 109.

90- *P. GUARRO Y GONZÁLEZ, " El Rif comercial", op. cit., p. 114.*

91- *Rafael PEZZI, Los presidiosmenores de África y la influenciaEspañola en el Rif. Eds. Establecimiento tipográfico de fortanet Impresor de la Real Academia de la Historia, Madrid 1893, p. 63*

92- *"El comercio con las Kabilas". El Telegrama del Rif, Melilla, Año IX, 26 de Enero de 1910, nº 2376.*

93- *LOBERA Cándido, "El comercio de Melilla durante el último decenio: Avances y retrocesos del español" (4partie). El Telegrama del Rif, Melilla, Año XX, 15 Mayo de 1921, nº 7358.*

94- *"El comercio en La Aduana: Datos de interés". El Telegrama del Rif, Melilla, Año XIV, 22 de Octubre de 1915, nº 9468.*

95- التجارة الفاسية، م.س، ص. 118-119.

96- *Juan De España (Seudónimo de José Rimblas), La actuación de España en Marruecos: Apuntes de historia y estudios sobre la política y situación actual del problema hispano-marroquí. Imp. De Ramona Velasco, Madrid 1926, p. 162.*

97- *M. AZIZA,La Sociedad rifeña, op. cit., p. 129.*

98- التجارةالفاسية، م.س، ص. 119.

99- نفسه، ص.150.

100- *P. GUARRO Y GONZÁLEZ, "El Rif comercial", op. cit., p. 114.*

101-جرمان عياش، أصول حرب الريف. ترجمة: محمد الأمين البزازو عبدالعزيز التمسماني خلوق، منشورات للشركةالمغربية المتحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء 1992م،ص. 165.

102-بوشعراء، الإستيطان، م.س، ج.1، ص. 311.

103-أوردته: آآمنة اللوه،"حول إستراتيجية النبأ عند المغاربة". مجلة البحث العلمي،ع.42،س. 199م/1995م،ص.1